الباب السادس والعشرون

فى خاصيَّة الأربعينيّة التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوبُ القوم من «الأربَعين» شيئًا مخصوصًا لا يطلبونه في غيرها، ولكن لَمّا طرقتهم[1] مخالفاتُ حُكِم الأوقات أحَبُّوا تقييدَ الوقت بالأربَعين؛ رجاءً أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين. على أن «الأربعين»خُصّت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ: «مَن أخْلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه»[2] وقد خصّ الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتُّل، قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِين لَيْلَةً﴾[3] وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل — وهم بمصر — أن الله تعالى إذا أهلك عَدوَّهم واستنقذهم من أيديهم بكتابٍ من عند الله تعالى فيه تبيانُ الحلال والحرام والحدود والأحكام، فلما فعل الله تعالى ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربَّه الكتابَ، فأمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يومًا — وهو ذو العقدة — فلما تمّت ثلاثون ليلة أنكر خُلُوفَ فَمِه، فَتسوَّك بعود خَرْنُوبٍ، فقالت له الملائكة: كُنَّا نَشَمُّ من فيك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة، وقال له: «أما علمت أن خُلوف فم الصائم أطيبُ عندى من ريح المسك».

ولم يكن صوم موسى عليه السلام تركَ الطعام بالنهار وأكلَهَ بالليل، بل طوى الأربعين من غير أكل، فَدلّ على أن خُلوَّ المعدة من الطعام أصلٌ كبيرٌ فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعدًا به لمكالمة الله تعالى.

والعلوم اللدنيَّةُ فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضربٌ من المكالمة، ومن انقطع إلى الله أربعين يومًا مخلِصًا متعاهدًا نفسَه بخفّة المعدة يفتح الله عليه العلوم اللدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك.

غير أنّ تعيين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ، وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك، فالتحديد والتقييد بالأربعين من المدة لحكمة فيه.

---

(١) الطروق: الإتيان ليلاً.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى أيوب بسند ضعيف.

(٣) آية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

ولا يَطّلع أحد على حقيقة ذلك إلاّ الأنبياء إذا عرّفهم الحقُّ ذلك، أو من يَخُصُّه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء ويلوح فى سرّ ذلك معنى، والله أعلم:

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قَدرُ التخمير بهذا القدر من العدد، كما ورد «خمرَ طينةَ آدم بيده أربعين صباحًا» فكأنّ آدم لما كان مستصلَحًا لعمارة الدارين، وأراد الله منه عمارةَ الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كوّنه من التراب تركيبًا يناسب عَالَم الحكمة والشهادة، وهى هذه الدار الدنيا.

وما كانت عمارة الدنيا تتأتى منه وهو غيرُ مخلوق من أجزاء أرضيةٍ سفلية بحسب قانون الحكمة.

فمن التراب كَوّنه، وأربعين صباحًا خمر طينته؛ ليُبعِدَ بالتخمير أربعين صباحًا بأربعين حجابًا من الحضرة الإلهية كلُ حجابٍ هو معنىً مودعُ فيه يَصلُح به لعمارة الدنيا، ويتعوّق به[1] عن الحضرة الإلهية ومواطنِ القرب؛ إذ لو لم يتعوّق بهذا الحجاب ما عُمرت[2] الدنيا.

فَتأصّلَ البعدُ عن مقام الغرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافةِ الله تعالى فى الأرض. فبالتبتُّل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجّه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودعٌ فيه. وعلى قدر زوال كلّ حجاب ينجذب ويتخذ منزلاً فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها.

فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصَّبت إليه العلوم والمعارف انصبابًا.

ثم العلومُ والمعارف هى أعيانٌ انقلبت أنوارًا باتّصال إكسير نُور العظمة الإلهية بها، فانقلبت أعيانُ حديث النفس علومًا إلهامية، وتصدّت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة، فلولا وجودُ النفس وحديثُها ما ظهرت العلوم الإلهامية؛ لأن حديث النفس وعاءٌ وجودىٌ لقبول الأنوار، وما للقلب فى ذاته لقبول العلم شىءٌ.

وقول رسول الله ﷺ (ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) إشارةٌ إلى القلب، باعتبار أنّ للقلب وجهًا إلى النفس باعتبار توجُهه إلى عالم الشهادة، وله وجهٌ إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب، فيستمد القلبُ العلومَ المكنونة فى النفس ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجماته، فظهورُ العلوم من القلب لأنها متأصّلة فيه، فللقلب والروح مراتب، من قُرب المِلهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإفهام.

---

(١) نعوق: تأخر وانصرف.

(٢) وفى نسخة: ما انعمرت.

فالعبدُ بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهرَ العلوم.

وقد ورد فى الخبر: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[1].

ففى كلّ يوم بإخلاصه فى العمل لله يكشفُ طبقةً من الأطباق الترابية الجِبلِّية المبعدةِ عن الله تعالى إلى أن ينكشف باستكمال الأربعين أربعون طبقةً، فى كلّ يوم طبقة من أطباق حجابه.

وآيةُ صحة ذلك للعبد وعلامةِ تأثُّره بالأربعين ووفائِه بشروط الإخلاص أن يزهَد بعد الأربعين فى الدنيا، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود؛ لأن الزهد الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة، ومن لم يزهد فى الدنيا ما ظفر بالحكمة، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تَبيَّن أنه قد أخلّ بالشروط ولم يخلص لله تعالى، ومن لم يخلص لله ما عبد الله؛ لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]. أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل إجازة قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال: أخبرنا أبو منصور الضبعى قال: حدثنا محمد بن أشرس قال: حدثنا حفص بن عبد الله قال: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عاصم، عن زِر عن صفوان بن عَسَّال رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة يجىء الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الربّ عزّ وجل، فيقول الربّ للإخلاص. انطلق أنت وأهلُك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار».

وبهذا الإسناد قال السلمى: سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت إبراهيم الشقيقى وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف، وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن على الهيجمى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال:

---

(١) متفق علية من حديث طويل فى آخره قال: فعن معادن العرب تسألونى إلخ..

(٢) آية رقم ٥ من سورة البينة.

سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ سألت النبى ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ربّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: «هو سرّ من سرّى أودعته قلب من أحببت من عبادى».

فمن الناس من يدخل الخلوة على مُراغَمة النفس؛ إذا لنفس بطبعها كارهة للخلوة، ميّالة إلى مخالطة الخلق؛ فإذا أزعجها عن مقارٍّ عادتها وحبسها على طاعة الله تعالى يُعْقِبُ كلُّ مرارة تدخل عليها حلاوةً فى القلب.

قال ذو النون، رحمه الله تعالى: «لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من الخلوة، ومن أحبّ الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق».

وقال الشبلى[1]، رحمه الله تعالى، لرجل استوصاه: «الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت».

وقال يحيى بن معاذ[2]، رحمه الله تعالى: الوحدة مُنْيَةُ الصدّيقين.

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعيةٌ الخلوة، وتنجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتمُّ وأكملُ وأدلٌ على كمال الاستعداد.

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاءً، قال: أخبرنا الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن أحمد المقرى، قال: أخبرنا جعفر بن الحكاك الملكى قال: أخبرنا أبو عبد الله الصفانى قال: أخبرنا أبو عبد الله البغوى قال: أخبرنا إسحق الديرى، قال: أخبرنا عبد الرازق عن معمر، قال: أخبرنا الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «أوَّلُ ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى: الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يأتى حراءَ فيتحنث فيه الليالى ذواتَ العدد، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه[3] الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ؟ فأخذنى فغطّنى، حتى بلغ منىّ الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية

---

(١) هو: أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى. بغدادى المولد والنشأة، توفى سنة: ٣٣٤هـ. وتفقّه على مذهب الإمام مالك وصحب الجنيد وولد سنة ٢٤٧هـ وكان إمام زمانه علمًا وورعًا ومعرفة.

(٢) هو: أبو زكريا يحيى بن معاذ الرزاى. نسيج وحده فى وقته مات بنيسابور سنة ٢٨٥هـ وعاش بمدينة بلخ. ومن أقواله: الفوت أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق.

(٣) وروى حتى فاجأه ولفظ الحديث جاءه.

حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبكَ الأَكْرَمُ﴾... حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال: زمّلونى.. زمّلونى.. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالى؟ — وأخبرها الخبر — فقال: قد خشيت على عقلى، فقالت: كلا، أبشر؛ فوالله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتُقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة، رضى الله عنها، حتى أتت به «ورقة بن نوفل» وكان امرءًا تنصّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[1]، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِى — فقالت له خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك،فقال ورقة: يا ابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره الخبر رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذى أُنزل على موسى، ياليتنى فيها جذعًا[2]، ليتنى أكون حيًا إذا يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مُخرجىّ هم؟ قال ورقة: نعم؛ إنه لم يأت أحد قط بما جئت إلاّ عودى وأوذى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[3] وحدّث جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يحدّث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: «فبينما أنا أمشى سمعت صوتًا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملَك الذى جاءنى بـ«حراء» جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، فَجئِثْتُ[4] منه رعبا، فرجعت فقلت: زملونى، زملونى، فدثّرونى» فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[5].

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مرارًا كى يُردى نفسه من شواهد الجبال، فكلّما وافى ذروة جبل كى يلقى نفسه منه تبّدى له جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، إنّك لرسول الله حقًا. فيسكن لذلك جأشه؛ وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك[6].

---

(١) وفى نسخة. وكان يكتب الكتاب العربى، وكتب بالعربية من الإنجيل.. إلخ) ونص الحديث كما فى الأصل.

(٢) جذعا: شابا قويا مستويا.

(٣) رواه البخارى وغيره.

(٤) اهتززت واضطربت.

(٥) البخارى بنحوه ورواه غيره.

(٦) وحول الرأى الذى يزعم أن محمدً صلى الله عليه وسلم حاول الانتحار حينما انقطع الوحى عنه فترة، يقول الدكتور محمود بن الشريف صاحب كتاب الرسول فى القرآن صـ ١١ «مرت فترة زمنية بعد نزول تلك الأوامر الإلهية=

فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين؛ فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضًا من الله إيّاهم عمّا تركوا لأجله.

ثم خلوة القوم مستمرة.

وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادئ بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح[1] مواهبه السنيّة.

=السالفة كانت بمثابة إعداد وتهيئة لأجواء تفرخ فيها الدعوة وتنتج، وتنتقل من طور إلى طور.. من طور السرية إلى طور الجهر والعلانية.. فى تلك الفترة الإعدادية لم ينزل الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَالضحى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبك وَمَا قلى﴾ حقًا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ينتظر مدد الإله وعون الرب ووحى السماء ليأخذ بيده وبيد أصحابه فى تلك الفترة الأولى من عمر الدعوة، إلاّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقلق بهذه الصورة التى صوره بها بعض المؤرخين من المغالين وممن نهج نهجهم.. لم يقلق بتلك الكيفية التى زعموا بها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عليها من الأنزعاج والسير على غير هدى فى شعاب مكة حتى لقد تغالى البعض فزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم شعر بأنه لم يعد معضدًا بإلهام الله!!!

وأنه من شدة شوقه إلى الوحى فكرّ فى أن يقذف بنفسه من ارتفاع شاهق وأن ينتحر!! وما كان للداعية الذى صنعه الله أن يلجأ ما يخالف تعاليم الله وإلى ما يغضب الله من إزهاق روح أو وأد نفس. على أن الذى يتتبع مسار آيات سورة الضحى يرى بعد تأمل وإمعان أنها من قبيل الإرشادات الإلهية والإشارات والبشارات، ومن قبيل التثبيت والتطمين للرسول صلى الله عليه وسلم فالرسول عليه السلام لم يلح أن ينزل الوحى عليه، فما الوحى إلاّ من عند الله وبإرادة الله».

(١) سنوح: ظهور